- ٢٠ -

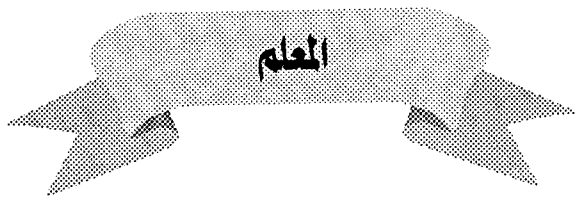

ما أعظم وأروع محمدا ﷺ فى سلوكه وفى أستاذيته وفى فضائله..

إنه كإنسان تفوق إنسانيته كل ما درج عليه الناس.

وهو فى أستاذيته أستاذ لم تعرف الدنيا مثل أستاذيته فى أى عصر من العصور وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهو فى فضائله.. فالحديث يطول ويطول ولا تنتهى متابعته.

إنه يرسم الخطوط العريضة للدين.. فيوضح لنا أركانه التى أقيم عليها البناء كله فيوجزه ببلاغته المعهودة بقوله:

-« بنى الإسلام على خمس وهى: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت من استطاع إليه سبيلا وصوم رمضان ».

وروى مسلم عن عمر رضى الله عنه قال:

بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام ؟

فقال رسول الله ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.

قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فاخبرنى عن الإيمان ؟

قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره.. قال صدقت..

قال: فاخبرنى عن الإحسان ؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فاخبرنى عن الساعة ؟

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرنى عن أماراتها ؟

قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة يتطاولون فى البنيان .. ثم قال يا عمر أتدرى من السائل ؟

قال عمر: الله ورسوله أعلم.

قال: فانه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم.

والنبى جاء ليعلمنا كيف نسلك فى حياتنا، فقد هدم الإسلام عادات قديمة ما عادت تناسب الحياة، وأعاد للإنسانية رشدها، وبين الإنسان كيف تكون عاداته وتقاليده متسمة مع الكمال.. فمهمة الإنسان فى الدنيا عبادة الله.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

ومادام الهدف من وجود الإنس والجن هو العبادة فلابد أن يكون السلوك الإنسانى متسما مع هذه الغاية، فلا معنى للرياء، والمظاهر الكاذبة لأن مرآة الإنسان هى التى تظهر ما ينطوى عليه قلبه من تقوى، وفؤاده من خشية الله فالنبى الخاتم يقول:

-« ان الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ».

وحتى يتقبل الله عمل المرء فلابد أن يكون هذا العمل بريئا من كل ما يغضب الله.. ويبعد الإنسان عن رحمته..

ففى الحديث القدسى:

-« أنا أغنى الشركاء عن الشرك.. من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه ».

ويروى مسلم عن أبى هريرة هذا الحديث العميق قال:

- سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأوتى به فعرفه نعمته قال: فما عملت فيها.

قال: قاتلت حتى استشهدت.

قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جرئ فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأوتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فيسحب على وجهه حتى يلقى فى النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأوتى به فعرفه نعمه قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.

قال: كذبت. ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار.

وهكذا نرى كيف يربى الإسلام المسلم.. فالعمل لابد أن يكون لوجه الله لا رياء.. ولا تظاهرا بالشجاعة أو التقوى، أو الخوف من الله. أى أن المؤمن لابد أن يستشعر عظمة الله وجلاله من داخله، وعندما ينقى الباطن ويكون الظاهر مرآة تعكس طهارة الضمير، ونبل الدافع.. يكون المؤمن قد شعر بحلاوة الإيمان، وجلال اليقين.. فالعمل لا يكون إلا لوجه الله، لا لأن يقال أن فلانا شجاع أو كريم أو محب للقرآن، أو أن يخشى الله، فالسلوك لابد أن يكون نابعا من قلب ممتلئ بالإيمان، ونور الله.

والذى يعبد الله ويخشاه، ويتقيه حق تقاته، لابد أن يكون واثقا من رحمة الله، فلا يتمادى فى عصيانه، بل يتوب إلى الله، وأبواب السماء مفتوحة للتائبين..

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

والنبى يقول فيما رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى عن النبى عليه الصلاة والسلام:

-« إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها، وما دام الإنسان قد تاب إلى الله، فعليه أن يقوم بما فرضه الله عليه.. الصلاة.. فالصلاة ركن من أركان الإسلام.. من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.. والصلاة عاصم للإنسان من الوقوع فى الخطايا.

﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

- أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم لا بحق الإسلام وحسابهم على الله . .

فالإسلام يحض على الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد. . الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. ويأتى بعد هذا الإيمان إيتاء ما أمر الله به من صلاة وصيام وزكاة، وحج لبيت الله الحرام. .هذه الأعمدة التى يقام عليها بناء المجتمع الإسلامى، والسلوك الإسلامى. . مجتمع قوى لا يعرف التخاذل، متعاطف لا يعرف الأحقاد، جاد لا يعرف الفوضى. . ولنستمع إلى الرسول الكريم وهو يقول:

- «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

ثم تبلغ هذه الرسالة الكريمة قمة العظمة، وقدرتها على صنع الإنسان المتوافق مع نفسه ومع الناس، والذى يربى المسلم على احترام نفسه واحترام الآخرين. . وهذا يتطلب عدم النفاق والخضوع لغير الله، لأن كل شئ بأمر الله. . فلا داعى أن يضع المسلم نفسه فى مكانة تأباها النفوس الكريمة. . فالرسول الكريم يقول:

-« احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشئ لن يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف ».

والشيخ مصطفى المراغى، وهو يفسر أوائل سورة البقرة، يوضح ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن فى صلاته فيقول:

-« الصلاة فى الإسلام أكمل مظهر من مظاهر العبودية (لله) وفاتحة الكتاب إذا روعى معناها أثناء التلاوة، وهى من أكبر العون على استحضار ذات المعبود متجلية بأكمل صفاتها، ومن أكبر العون على التوحيد الخالص، المبرأ من أية شائبة للشرك. وإذا خلت الصلاة من حقيقتها وروحها - وهو الإخلاص لله سبحانه، واستشعار سلطانه - كانت جسما لا روح فيه، ولم تؤد الغرض منها وهو التهذيب، والنهى عن الفحشاء والمنكر والتخلص من الهلع والمنكر ».

وإذا كان الركن الأول من الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ومن هنا كانت عظمة الرسالة المحمدية، فهى إلى جانب أنها دعوة للإيمان، فهى أيضا دعوة لتنظيم المجتمع على أسس مستنيرة، فالمال مال الله، ويجب ألا يكنز، أو يحبس فى خزائن.. ولكن المال لابد أن يدور فى المجتمع حتى يتحقق النفع العام ومادام المال مال الله استخلفه فى الناس.. فلابد أن يستفيد منه عباد الله، ولا يحتكره أفراد أو طوائف من الناس.. ومن هنا فقد حث الإسلام، على الزكاة، وأصبحت فرضا.. وقد حارب أبو بكر الصديق الذين امتنعوا عن أداء الزكاة وقال كلمته المشهورة:

-« والله لو منعونى عقال بعير لقاتلتهم عليه ».

فالزكاة هى حق الأُمة على الناس، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم.. ومن هنا يحدث التوازن فى المجتمع، ولا تصبح الهوة واسعة بين الذين يملكون والذين لا يملكون.

وإذا كانت الزكاة فرضا، فإن الإسلام حث أيضا على الصدقات، حتى تعم الفائدة من المال، وتصلح أحوال المجتمع وينال المنفق من هذه الصدقات جزاء الله.

وربما كانت أحد الأسباب الهامة التى قاوم من أجلها سادة قريش وسادة العرب الدين الجديد، هو هذا الفرض.. أعنى الزكاة.. فقد كانوا يحبون

المال حبا جما.. لأن قيمة الفرد الاجتماعية كانت تقترن بعدد ما يملك من العبيد والإماء والأموال.. ومن هنا فقد حرصوا على المال حرصهم على أعز الأشياء لديهم مع أن الله عنده خير من ذلك..

والقرآن الكريم بأسلوبه المعجز يصور لنا هذا الحب الجارف للمال بقوله فى سورة آل عمران:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد جاء الإسلام وهو دين الوسط، ليجعل الحياة متناسقة، والنفوس هادئة مطمئنة.. ولا يمكن أن تهدأ النفوس حيث يوجد الثراء الفاحش.. والفقر المدقع.. لكن النفوس تطمئن عندما تجد كل نفس ما يسد الأود، ويمكنه بالتالى أن يتعايش مع الحياة.. فلو أعطى الأغنياء حق الله من الزكاة.. لاختفت ظاهرة الأحقاد بين الطبقات، ولتباعدت ظاهرة الحقد هذه عندما تخلع النفس عن نفسها الشح، وأعطت عن طيب خاطر كصدقات للمحتاجين:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وإذا كان المجتمع العربى قبل الإسلام كان يسيطر عليه أصحاب الأموال من ذوى الثراء، الذين جمعوا أموالا طائلة من التجارة، فقد كان هؤلاء الأثرياء يثقلون كاهل الناس (بالربا).. وأصبح الربا داء وبيلا يحول دون أن يحيا الناس حياة كريمة، فقد كان من الصعب أن ترد النقود وما عليها من ربا فاحش، فترتبك حياة الأسر، وتعيش تحت وطأة هذا الكابوس المخيف..

ومن هنا أيضا فقد كان من عظمة التشريع الإسلامى النهى عن الربا ومحاربته..

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

والزكاة على رأس المال تعادل ٢,٥ فى المائة سنويا، وهى تؤدى إلى رأس المال.

ثم يرسم القرآن الكريم النهج القويم، حتى يمكن أن يعيش المجتمع كالجسد الواحد.. بلا أحقاد ولا ضغائن، ولا تخلف، فيرسم صورة المؤمن الصادق، وقد أدى حق الله، بالشروط التى وضعها القرآن الكريم..

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والركن الرابع فى الإسلام هو صوم رمضان، وإذا كان الصوم قد عرف بأشكال متعددة قبل الإسلام، كالصوم عن الكلام، أو الصوم فى أيام معلومة كيوم عاشوراء عند اليهود إلا أن القرآن الكريم وسنة النبى الكريم حدد صيام شهر رمضان بالنسبة للمسلمين فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٥].

وواضح ما فى صيام رمضان من حكمة، فهو بجانب إشعار الغنى بما يعانيه الفقير، فهل أيضا رياضة روحية تقرب العبد من ربه وتعلم الإنسان الصبر وقوة التحمل وقوة الإرادة فى مواجهة الصعاب، بجانب ما فى الصوم من فوائد صحية أقرها العلم الحديث.

وقد كان من عادة النبى فى رمضان أن يفطر على قليل من التمر والماء، وبعد صلاة المغرب، يكمل أفطاره..

والرسول يوضح ما ينبغى أن يكون عليه الصائم، حتى يأتى الصوم بالفائدة المرجوة منه..

-« الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائما، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل: إنى صائم».

والركن الخامس للإسلام هو الحج.. لقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

والنبى الكريم يقول:

- «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا»..

وواضح ما فى الحج من تجمع المسلمين من كل مكان.. انه مؤتمر عالمى للمسلمين، يتدارسون فيه أمور دنياهم، فى نفس الوقت الذين يلبون فيه نداء السماء..فيذهبون طائعين لأوامر الله، يؤدوون المناسك كما أقرها رسول الله، استجابة وطاعة لله.

هذه هى الأركان الخمسة للإسلام التى تكفل حياة مستقرة آمنة مطمئنة للمسلمين.. إذا حافظوا عليها وتمسكوا بها.. فهى تكفل لهم السلام النفسى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى..

وهكذا استطاع الإسلام فى ظل هذه الأركان أن يجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعا متماسكا، وفى ظل شريعة الله التى تحكم بين المسلمين، وهذه الشريعة تندرج فى طاعة الله ورسوله وما جاء به الشرع الإسلامى:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

ثم يوضح لنا الإسلام أن الشرع يمكن أن يندرج تحت إطار العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى.

والقرآن الكريم يوضحها بأسلوبه المعجز فى كلمات بليغة قصيرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

فالعدل هو أساس الحياة فى المجتمعات، والعدل يعنى أن يعدل الإنسان فيما بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين الآخرين وينبع هذا العدل من الإحسان للنفس وللغير، وهذا يأتى بأن يسود الود والرحمة والتعاطف مع ذوى القربى.

وما دام الإنسان يتطلع إلى العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى فإنه يجب أن يبتعد عن هذه الدائرة التى تدخل الإنسان فى براثن الشيطان وحبائله، وما يؤدى ذلك من نتائج خطيرة على الفرد وعلى المجتمع.. فعلى الإنسان أن يبتعد عن الفحشاء والمنكر والبغى.

أى مجتمع طاهر هذا الذى يحكمه هذا القانون.. مجتمع عادل محسن، يعرف الإنسان فيه حق نفسه وحق الآخرين، فلا يعتدى على أحد ولا ينتهك حرمات الغير.

انه المجتمع المثالى الفاضل الذى يعيش فيه الإنسان فى أمان مع نفسه ومن نفسه، ومن الآخرين أيضا.

فإذا خرج إنسان على شرع الله فلابد من إقامة الحدود حتى يستقيم المجتمع، ولا يعيش فيه مفسد أو ظالم، تلك الحدود التى حددها كتاب الله وسنة رسوله..

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وتبلغ الرسالة الذروة.. ذروة التكامل، وهى ترسم منهاج حياة المسلمين.. فيما فرض الله عليهم من فرائض، وفيما أوجبت لهم من واجبات، وفيم فرضت لهم من حقوق وفيما رسمت من أطر للمجتمع فى العقوبات والمواريث وكيفية التقاضى بين الناس. بل فى سلوك الفرد عندما يقوم من نومه، وعندما يعود إلى فراشة، وعندما ينوى السفر، وعندما يذهب إلى الجهاد.. فصلت شريعة الله كل شئ بالنسبة لحياة الفرد والجماعة.. إنها الرسالة الخالدة التى جاء بها إمام المرسلين وسيد ولد آدم على الإطلاق، الذى كان فى حياته وسلوكه نبراسا لمن يريد النجاة من هول الدنيا وهول الآخرة.

وإذا كان النبى العظيم هاديا.. ومبشرا ونذيرا، وكان خلقه القرآن.. وإذا كان الشرع قد ألزم الناس بفروض وطاعات معينة، فإن النبى نفسه، قد تجاوز كل هذا وألزم نفسه بما يلزم به سائر المسلمين.

كان يقوم الليل عابدا لله، راكعا له ساجدا، حتى تورمت قدماه وعندما تسأله السيدة عائشة:

- ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟

كان يقول:

- أفلا أكون عبدا شكورا.

وكان يقول عليه الصلاة والسلام:

- «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا.. أرى ما لا ترون، واسمع ما لا تسمعون.. أطت السماء، وحق لها أن تئط.. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك ساجد لله. والله لو تعملون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا».

ويروى لنا عوف بن مالك عن عبادة رسول الله الذى لم يلزم بها الآخرين، فيحكى لنا قائلا:

- كنا مع رسول الله ﷺ فاستاك ثم توضأ، ثم قام ليصلى، فقمت معه فاستفتح، فكان لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ولا مر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول:

سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ (آل عمران) ثم سورة بفعل ذلك.

قال عوف بن مالك «وأينا يطيق أن يصنع مثل ما صنع»..

ومع ذلك كان النبى يتخفف فى الصلاة عندما يؤم الناس، ويسرع فى صلاته رحمة بطفل يبكى..

يا لعظمتك يا رسول الله.

وإذا كان الناس يصومون رمضان، حتى غروب الشمس، فقد كان النبى فى كثير من الأحيان يصوم صوم الوصال، أى يواصل صيام الليل والنهار.

والإنسان يرى عظمة النبى وتقواه، وهو نبى الله وخليله ومصطفاه، وقد غفر له ربه ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك فهو إمام المتقين، وسيد الخاشعين والخائفين من جلال الله.

سمع مرة ابن مسعود يقرأ آيات من سورة النساء، وعندما تلا هذه الآية:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

فإذا بالدموع تنهمر من عينيه بغزارة، ويقول لابن مسعود:

- امسك..

وإذا كان الإسلام قد حض الناس على أن يؤدوا زكاة المال فإن النبى ﷺ كان أكثر الناس جودا، وكان يأتيه من الغزوات وله الخمس، ينفقه جميعا على فقراء المسلمين، وكان يستعيذ من البخل.

- اللهم أنى أعوذ بك من البخل والحسد، كما أعوذ بك من الفتنة وعذاب القبر.

وقال ﷺ:

- كيف بالمرء انما أن يحبس عمن يملك قوته.

وكان ﷺ سيدا فى معاملة الناس.. يعاملهم بالحسنى.. يهش فى وجوههم، ويحسن استقبالهم.. فكان يبدؤهم بالسلام وكان لا يترك يد من يسلم عليه حتى يتركها هو، وكيف لا، وقد صور أخلاقه القرآن الكريم بقوله:

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهو القائل:

- لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق.

والحديث عن محمد المعلم حديث ممتع وشائق.. فهو أستاذ البشرية فى كل العصور بلا منازع.. انه يعلمنا كيف يعامل الإنسان أخاه فى الإنسانية.. أن يكون له هشاً، ومعينا فى النائبات، ولا يغتابه، ولا يوقعه فى سوء، ولا يسخر منه.. فالإيذاء يجب أن يلغى من قاموس المسلم..

- والذين يؤذوون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا.

والنبى يوصى المؤمنين بهذه الوصايا:

- لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله أخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.

إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم.

المسلم أخ المسلم لا يظلمه.. ولا يخذله .. ولا يحقره..

التقوى ها هنا (مشيرا إلى صدره)..

بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم..

كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله.

إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم.

ومحمد المعلم العظيم.. يعلمنا كيف نكظم الغيظ، وكيف نعفو عن الناس، حتى يعيش المجتمع كالبناء المتماسك عملا بقوله الكريم:

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤].

والرسول الكريم يقول فيما يروى البخارى عن أبى هريرة إنه قال: ان رجلا جاء للنبى ﷺ وقال أوصنى قال: لا تغضب، فردد مرارا فقال: لا تغضب..

وروى مسلم عن عائشة قالت:

- ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله، وما نيل منه شئ قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شئ من محارم الله تعالى.

وكان النبى الكريم رغم مهابته وقوة شخصيته من أكثر الناس حياء.. فخلقه القرآن.. والقرآن يقول:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والرسول يقول:

- الحياء من الإيمان.

وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى قال:

- كان رسول الله ﷺ أشد حبا وأشد حياء من العذراء فى خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه.

إنه الرسول الكريم.. أعظم من عرفته الحياة فى شجاعته وفصاحته، وتواضعه، وكرمه وسخائه وعطائه وحيائه وحبه لله والناس.

إنه الإنسان الرفيع الذى لا يصدر عنه إلا كل رفيع، إنه الإنسان الذى يرتفع بتواضعه إلى ما لا يصل إليه الملوك والأباطرة بالتجبر والتعنت والإرهاب.

إنه الإنسان الشجاع الذى فاقت شجاعته كل مناسيب الشجاعة، وهو يتحدى مجتمعات جاهلية عششت فى عقولها قيم جاهلية بغيضة وشرك يجرى فى دمائهم مجرى الدم فى العروق، فقاومهم وحده.. يسنده إيمانه القوى بالله، فغير هذه المجتمعات إلى مجتمعات فاضلة، ثم جمعهم إلى مجتمع الإسلام، فأصبحوا جميعا يدينون بدين واحد ويتجهون إلى قبلة واحدة.

* * *